أورشليم في مكان يُدعى موضع الجلجلة أو الجمجمة ، رجل إسرائيلي مُسمَّر على صليب يستعدّ لاستقبال فصح غير فصح موسى . موسى عبرَ البحر الأحمر من أرض فرعون إلى أطراف أرض كنعان . أما هذا المصلوب فقريباً يعبر من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة .

ها هو يدنو خطوة خطوة إلى باب ملكوته الأعلى . لكنها خطوات مَن يمشي على جمر . « أما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف . » لذلك ، وقد نهكه التعب ، وأوهن عزمَه الدمُ المتدفق من جراحه ، يجول بعينيه الذابلتين فيما حوله ، فلا يرى إلا وجوهاً ضاحكة لأوجاعه ، ولا يسمع إلا أصواتاً هازئة بجنونه . أين تلاميذه الذين أقسموا له المحبة غير مرة وتركوا العالم وتبعوه ؟ لقد هجره الكلّ حتى تلاميذه ! أفيهجره « أبوه السماويّ » كذلك ؟ ؟

ها شفتاه الجافتان تتحركان ثانية ، ومن صدره الذي وجد اليأسُ إليه منفذاً لأول مرة يخرج أوجع وأفجع ابتهال من بشر إلى إله : « ايلي ايلي ! لما شبقتني ؟ » وتفسيره : « إلهي إلهي ! لماذا تركتني ؟ »

أخامرتِ المصلوبَ في تلك اللحظة ريبة من أنّه سيقوم من الموت ، وأنّ ما ألقاه من البذور سينبت ويأتي بثمر ؟ أظنّ أنها النهاية التي لا بداية بعدها ؟ أم هو الألم الذي لا يطاق حرّك